جلوس سلطانا المسمودُ طالعهُ عبدٌ كبيرٌ لهُ في الملك تأييدُ
أبشر وبشّر اذا ما أرّخوهُ وطبْ فالدهرُ اشرقَ والسلطان محمودُ

ومن محاسنهِ قولهُ في نوفرة على رأسها ليمونة :

ونوفرةٍ تبدي من الماء قامةً زهت بكمال الحسن حسناً ومنظرا
عمودٌ من البلّور من فوق رأسهِ زُمرّدةٌ خضراء تنثر جوهرا

ومن أوصافهِ قولهُ يذكر دير خطّة من قرى الشام بين النبك والقريتين :

هادي الرّكب سرّ وحثّ المطيّه لديار الحطا بدير العطيّه
فبتلك الربوع تلقى ربيع الـ ـأنس فاحت ازهارها البهريّه
جنّةٌ قد تزخرفت في رباها بثمارٍ من البهاء جنيّه
تجري من تحتها المياهُ بأنها ـر التهاني للواردين مريّه
وجواري المياه ترقصُ لمّا شبّ الريحُ يشجي منها الشجيّه
وغصون الرياض غنّتْ تبهًا حبّذا فتنة نائم سحريّه
حبّذا حبّذا معاني الاغاني لتهاني المعالم الانسيّه
وبها لليها لوامعُ نورٍ بضياء من الجمال جليّه

وقد اشتهر بين المسلمين غير هؤلاء في الشعر والادب لكنّ قصائدهم وتآليفهم لا تزال في خزائن الخاصّة او اخذتها ايدي الضياع نذكر منهم من اتصل بهِ علمنا بمطالعة مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة (ستأتي البقية)

# خلود النفس

للاب لويس شرفواليو اليسوعي (تتمّة)

وربّ قائل يقول: وهبْ انّ اصوات الامم تتّفق في تعليم حقيقة خلود النفس أفلم يتّهم ايضاً بين الفلاسفة واصحاب العقول النيّرة رجال انكروا هذه القضيّة وما ادراكَ انهم لم يصدقوا في قولهم

نجيب انهُ ليس من حقيقة ايّاً كانت لم يتصدَّ لها بعض اهل السفسطة . ولكن هيهات ان يقوى قولهم على اقوال ذوي المدارك السامية والعقول الراجحة . نعم لا نجهل انّ افراداً من البشر وهم الملحدون والزنادقة حاولوا نقض حقيقة الخلود لكنّ اصواتهم ضاعت في يداء فلم يرنّ لها صدًى في القلوب السليمة والاذهان الزكيّة . وكثيراً ما

دُهش هؤلاء من اقرادهم فارعووا ولاسيّما في ساعة البلاء أو بازاء الموت فزيّفوا أقوالهم السابقة ونسبوها الى الجهل وطر الشباب وغلبة الاهواء التي أعمت عقولهم واسكتت صراخ ضميرهم . وكفاك لتقريض آراء هؤلاء المخدوعين قول اكبر فلاسفة الوثنيّة افلاطون الذي كرّر غير مرّة في تآليفه ما نثبت هنا لبابهُ :

« قد خُلق الانسان للحكمة فاذا لم يجدها طاش سهمهُ وفُقدت غايتهُ . والموت هو الذي يجرّدهُ عمّا يصدّهُ عن اكتساب الحكمة أعني النقائص والرذائل التي تشوّه النفس فاذا مات وانفصل ونجا عن قسمه الهيولي ادركت نفسهُ الحكمة . . وكذلك العلم فانّ النفس لا تنالهُ الّا بهدوء الحواسّ لانّ الحواسّ اكبر عائق يعوقها عن الفوز بالمعلومات . وهي ستصيبهُ تمامًا دون انقطاع اذا ما خرجت من حبس جسدها الفاني . . . وكذلك لا بدّ للابرار الصالحين من جزاء وثواب وللطالحين من عقاب وكلا الامرين لا يحصل في هذا العالم الّا يسيرًا فلا بُدّ اذن من مكان تُنتقل اليهِ النفس بعد انفكاك جسدها لتلقى فيهِ عدلاً تامًّا »

هذا ما قالهُ افلاطون في كتابهِ المسمّى « فيدون » وقولهُ عين الحقيقة لرشدهُ اليهِ عقلهُ الصائب وكأنّنا بقول من بعدهِ : رعاك الله من فيلسوف صادق نطق لسانهُ بما يوافقهُ على صحّتهِ كل امرئ نافذ البصيرة ثاقب الرأي

*

وما لنا نستفتي الشعوب ونقرع ابواب الفلاسفة أليس في مقدس قولنا وفي سويداء قلوبنا مجيبٌ صادقٌ لا يخدعنا فيكرّر صوتهُ على مسامعنا ليلًا مع نهار : « كلّا لن تموت بل تحيا »

اذا اعتبرنا بعين الحكم والعقل ما يتركّب منهُ شخصنا لوجدنا فينا قسمًا قابلًا للتغير تتلاعب فيهِ الأيام وصروف الدهر ولا ندعهُ يومًا في حالة ثابتة . ذلك جسدي المركّب من عناصر ماديّة متعدّدة منقسمة متناقضة تثور فيها انواء الحياة فلا تزال تدكّ اركانها وتبادر محاضنها الى ان تفرّق مجموعها وتبدّد شتاتها . لكنّ وراء هذا القسم المادّي نفسًا بسيطة لا تقبل الانقسام روحيّة مجرّدة عن المشاعر والمحسوسات تراها اذا قابلتها مع الجسم اكرم جوهرًا وافضل طباعًا فيها من الخواصّ الشريفة ما هو أسمى وأجلّ من خواصّ الاجسام كيف لا وهي تدرك المعقولات وتفهم الكليّات فيجرّد

نظرها الى انسان فرد تحكم في كلّ انسان. تقابل بين امرين وتجد الحكم في توافقهما او منافاتهما. وان كانت تأخذ مبادئ العلوم عن الحواسّ فانّ لها من ذاتها مبادئ أخرى وافعالًا لا تستعيرها عن الحواسّ البتّة وهي المبادئ العالية الاوّليّة التي تبني عليها القياسات الصحيحة. وتدرك ما خلا ذلك معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم وليست تحتاج في ادراك ذاتها الى شيء آخر غير ذاتها. وان اخذت شيئاً من الحواسّ ربّما كذّبته او اصلحت خطأه كما تفعل في حكمها عن المنظورات البعيدة فتقضي بأن حجمها وصورتها ولونها ليس كما يظهر لها بالحواسّ

وما يقال في العقل يصدق في الارادة فانّنا نشعر بان الله خصّ نفسنا بحريّة العمل بحيث لا يمكن القوّة ان تقهرها وان وقع الاغتصاب على الجسد فانّ للنفس قوّة تفوق كلّ القوى الماديّة

فان كانت النفس كذلك تراها القوى العالية الشريفة ولا تقبل انعداماً وان خُصّت بحياة روحيّة لا تحتاج فيها لجسم ولا لغذاء فليت شعري كيف يمكنها ان تتلاشى او تموت ولا شيء من المخلوقات قادر على ان يعمل في جوهرها البسيط الروحيّ. فلا يبقى الّا ان يُقال بانّ الخالق الذي خلقها هو هو الذي يفنيها ويعيدها الى العدم كما خلقها من العدم

ولكن على رسلك ياصاح كيف رعاك الله تستطيع ان تثبت كون الخالق يُعيد النفس الى العدم أيمكنك بيان الامر نقلًا او تبيّنهُ عقلًا. وكلا الامرين باطل فان النصوص المنقولة والاسفار المقدّسة تؤيد الامر فضلًا عن كونها لا تنكرهُ البتّة. وكذلك اتفاق المشترعين في سُنّتهم والامم في تقاليدها يدلُّ على ان هذه الحقيقة راقية الى الوحي الاوّل في بدء الخليقة

وزد على ذلك ان العقل ليس بقادر على تعليل هذا القول وبيان سبب يوجب الخالق على إعدام النفوس وملاشاتها. لا بل يوضح العقل بانّ الله يريد خلود النفس ويخلّدها فان امعنت النظر في النظام الطبيعيّ الذي وضعهُ الخالق تجد ان العالم الهيولي لا يزال في تقلّب متواصل واستحالات متوالية ومع كلّ ذلك لا ترى ذرّة واحدة من المادّة تتلاشى وتعود الى العدم ولقا يجري عليها فقط تحويلها من حالة الى حالة. وهذا مبدأ راهن من مبادئ علم الكيمياء يثبتهُ العلماء كلّ يوم بالاختبارات العديدة فليت

شعري كيف يمكن الخالق الذي يصون المادَّة ولا يعيد دقائقها الى العدم أن يُعدم ما هو اشرف واعظم وابقى من المادَّة نريد نفس الانسان الجوهريَّة المصنوعة على شبه الخالق في نطقها وادراكها

ومن المبادئ المقرَّرة ايضاً في الفلسفة انَّ الله سبحانهُ وتعالى لا يطبع في قلب الانسان ميلًا غريزيًا الَّا ويحقّق ميلهُ وامنيَّتهُ فعلًا. وفي قلب المرء الناطق ميلٌ غريزيٌ الى معرفة كلّ حقيقة والى اجراء العدل التام والى نوال السعادة الكاملة. وكلّ هذه الاميال لا ينال منها المرء في حياتهِ الَّا النزر الزهيد فلا بدَّ اذن ان تلقى النفس شبعها منها في حياة أُخرى

قلنا انَّ في النفس ميلًا غريزيًا الى معرفة كلّ حقيقة. خُلق الانسان ناطقًا فهيمًا فتراهُ يبحث ما امكنهُ على ادراك المعارف واحراز العلوم يتصفَّح الكتب ويتأثر اعقاب الطبيعة في كلّ مظاهرها فيرصد الافلاك ويهبط الى اغوار البحار ويقطع المفاوز ويجاهل البلاد لعلَّهُ يجد شيئاً جديداً يضيفهُ الى معارفهِ. لكنَّ نطاق العلوم لا يزال كلّ يوم يتَّسع فمهما نال منها لا يكون الَّا كنقطة في بحر فسيح الأيام وهو يدنو من الموت ويرى عقلهُ لم يُصب من الحقائق الَّا ما لا يُنبأ بهِ فلا يكاد يدري الَّا انهُ لا يدري. أفيكون الخالق جعل فيهِ هذا الميل غير المتناهي الى معرفة الحقائق ليزيد بهِ عذابهُ؟ أفيليق بعزَّتهِ تعالى ان يفتح في قلبهِ هوَّةً كهذه دون ان يملأها ويسدَّ عوزها. كلَّا ثمَّ كلَّا

وكذلك شوق النفس الى العدل. فانها غريزة في اعماق قلبنا الذي لا يسكن ولا يخمد الَّا اذا اصاب كلُّ حقَّهُ. فانَّ كلَّ ما يخلُّ بالعدل ويتجاوز الحقوق يؤثر فينا ويقلق افكارنا فلا نرضى حتى نرى الحقوق مرعيَّة فيثاب البارّ ويُعاقب الاثيم وتُكسر شوكة المتعجرف ويرتفع الوضيع ويُقهر الظالم ويزكّى المظلوم. ولكن هيهات ان يتمّ ذلك في عالمنا الحاضر اذ يشبع الاشرار خيرًا فيعيشون مُتنعمين مهنَّأين مكرَّمين لا يردعهم رادع ولا يكفهم زاجر والابرار على خلاف ذلك تراهم يحملون اعباء الحياة ويعيشون خاملين مهملين مكروبين يرشفون كأس الاوجاع والآلام لا يشعر احد بما يقاسونهُ من الشدائد الَّا الله خالقهم. فاذا رأى الانسان هذا الفساد بقي مرتابًا من عدلهِ تعالى لا يقرُّ لهُ قرار الى ان يشخص بنظرهِ الى العالم الآتي حيث تصيب كلُّ نفسٍ ما تستحقُّهُ من الثواب او العذاب ولولا ذلك بقي عدل الله مظلومًا لا يظهر

صلاحهُ وبغضهُ للخطيئة وحبُّهُ للفضيلة وبرُّهُ لو قصر الانسان نظرهُ الى هذه الحياة الفانية

ومثلهُ ميل الانسان الغريزيّ الى السعادة. سرْ حيثما تشاء. اسأل من تُريد. تعقَّب حركات كلّ فرد من افراد الجنس البشريّ ترَ انَّ المرء لا يُفكِّر ولا ينطق ولا يعمل الّا لغاية واحدة هي سعادتهُ فيلتمس الخير لنفسهِ من كلّ وجوههِ وربَّما خُدع بالخيرات المحسوسة واللذّات الباطلة فطلبها وهو يشعر انَّ الحمَّ في الدسم. وعلى كلّ حال تجد المرء في كلّ أعمالهِ يطلب السعادة وان غشَّتهُ ظواهرها. لكنَّ السعادة الحاضرة سواء كانت في الخيرات الزائلة من غنًى ولذّات وجاه عالمي او في الخيرات الصحيحة من فضيلة وقيام بالواجبات وتضحية النفس لخدمة الوطن والقريب وعدول عن السيّئات لا تفي بمطلوب المرء ولا تسكّن ما في قلبهِ من الشوق الى النعيم والسعادة ما لم يتحقَّق انَّ بعد هذه الحياة حياةً أُخرى يحظى فيها بما لم يجدهُ في عالمهِ الحاضر فينال تلك السعادة التي طبع الله في قلبهِ الميل اليها. فان كان ذلك الميل اسًى بلا مسمًّى لا يتمّ الانسان بحياةٍ أُخرى وامكنهُ ان ينسب الى الله خالق الطبيعة الخلف في مواعيدهِ. فايُّ سعادة يأتي للانسان في هذه دار الفناء؟ اسمع ما كتب أيوب (ف ١٤): «الانسان مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء. كزهر ينبت ثمَّ يُقطع وكظلّ يبرح ولا يقف... الشجرة لها رجاء فانَّها اذا قُطعت تخلف ايضًا وفراخها لا تزول واذا تعتَّق في الارض اصلها ومات في التراب جذرُها فمن استرواح الماء تفرّخ وتنبت فروعًا كالغريسة. اما الرجل فاذا مات لبث هناك والبشر متى فاضت روحهُ فأين يوجد». وهذا صوت الوجع والكدر لا يخرج قطّ من افواه الموجودين الذين لا يذوقون في حياتهم غير المرارة والشقاء بل هو ايضًا صوت الذين ارخوا العنان لكل شهوات قلوبهم واشتاروا عسل الافراح واللذّات فتراهم يقرُّون مع سليمان الحكيم انهم قد خابوا في امانيهم وحبطوا في مساعيهم لانهم لم يجدوا في كلّ الامور الدنيويّة من مجد وشرف وسلطة وغنى ولذّات الّا الغمَّة والكدر فباطل الاباطيل وكلّ شيء باطل. فيالله ألم يفتح في قلب الانسان هذه الهاوية الواسعة الّا ليقيهُ في اليأس والقنوط. فحاذ الله أن يكون الخالق بنى آمالنا على جرف هارٍ وحاشا جلالهُ أن يلقي الانسان في شقاء أمرَّ من الموت

ولعلَّ البعض يعلّلون نفسهم بادراك السعادة مع تقدُّم العلوم وترقّي الاكتشافات

ألا ترى كل يوم ما يأتينا بهِ العلم من الوسائل لسرعة المواصلات ولتعميم الخيرات ونشر اسباب الرفاهيَّة . أين كانت الكهربائية قبل عصرنا ؟ أين كان البخار ؟ فها انَّ الانسان يطير بلا اجنحة ، يُسمع صوتهُ الى اقاصي المعمور يعرف في لمحة عين ما يجري في اربع خوافق العالم يتقلَّب بين عجائب الاختراعات . فليس من علم او فنّ او صنعة الَّا نالت من التقدُّم ما لم يكن في الحسبان أفليس ذلك ضامناً مؤكداً لاكتشافات جديدة يفوق بها الانسان على كلّ مشقَّات الحياة فيفوز باقصى درجة من السعادة

هذا ما يقولهُ ويكتبهُ بعض الجهَلة الأغرار وهم لا يعلمون ما يقولون . فهَبْ أن الاختراعات تتضاعف والاكتشافات تتزايد واسباب المعاش تتحسَّن والعاهات تخفّ فأين كلّ ذلك من السعادة . ولو سرَّحنا النظر في العالم لوجدنا البلايا والمصائب تفاقمت في عهدنا فضلاً عن كونها لم تخفّ . وقد نجمت من حالة الشعوب وترقّيها في سلَّم الحضارة أنصاب ورزايا جديدة تبعد الانسان عمَّا يأملهُ من الرفاهيَّة . وكفى بالموت وحدهُ شاغلاً يشغلهُ عن اقراح العالم كلّها ولو صفتْ من بقيَّة الاكدار . فهيهات هيهات ان تسدّ هذه الاكتشافات سدّ حاجات المرء ان لم نَقُلْ أنَّها زادت في عنائهِ وشقائهِ

هذه بعض ادلَّة تبيّن ان النفس مخلَّدة لا تموت وان اردت بعض الحجج التي يأوذ بها الفلاسفة لاثبات هذه القضيَّة أوردناها باختصار تأييداً لما سبق

يقولون اوَّلاً انَّهُ لمقرَّر انَّ النفس ليست بجسم ولا عَرَض وانَّها جوهر بسيط وما كان كذلك لا يقبل الانحلال فالنفس اذاً لا تنحلّ

يقولون ثانياً : وهو قول افلاطون يشبهُ القول السابق : انَّ كلّ فاسد انَّما يفسد من قبل رداءة فيهِ والهيولى هو معدن الرداءة فلمَّا كانت النفس مجرَّدة من الهيولى فلا بُدَّ ان يُقال ان النفس غير قابلة الفساد وما لا يقبل الفساد لا يقبل العدم . وان قيل ان الخطيئة تفسد النفس كان الجواب ان هذا الفساد عرضٌ يمكن ان تجلوهُ عنها برجوعها الى الخير

يقولون ثالثاً وهو ايضاً من اقوال افلاطون : انَّ النفس تعطي ابداً كلّ ما تُوجِدُ فيهِ حياةً وكلُّ ما يُعطي الحياة ابداً لا يوجد فيهِ فالحياة جوهريَّة لهُ . وما كانت الحياة جوهريَّة لهُ لا يمكن ان يقبل ضدَّها وضد الحياة الموت

ولا يقولنَّ قائل انَّ النفس اذا انفصلت عن الجسم لا يمكنها العمل لانَّ الجسد آلتها

وبه تتمُّ كلّ اعمالها وهذه الاعمال مصدر سعادتها فانَّ هذا القول باطل قال ابن مسكويه في كتاب الفوز الاصغر (ص ٨٠) :

« نعتقد جميع ما يعدُّهُ معاشر البشر سعادةً ونحن في هذه الابدان ملابسين الطبيعة ونحبُّ لذَّة في جميع الحواس ومن كلّ الجهات فهي كلها كالظل والشبح مما هو اعلى منّا لأنَّهُ فيض من هناك وهو كامل تام محض وان كنَّا لا نتصوَّرهُ حقّ تصوره . وكما اذا نظرنا الآن ونحن اناس مخلصون في احوالنا التي كانت لنا في الطفوليَّة والرضاع في حال ما كنا اجنَّة في بطون الامهات واطباق الارحام وما كنا نعدُّهُ سعادة ونكره مفارقتهُ حقرنا تلك الامور وتجاوزنا ذكرها اتقة منها وترفُّعاً عنها كذلك تكون حالنا بعد مفارقة الابدان فحينئذٍ نستهين جميع هذه الاشياء التي هي الان سعاداتنا ونأنف منها . وكذلك النفس اذا حصلت منفردة بذاتها خالصة من كدر الطبيعة ودرنها صار لها وجود آخر اشرف من الوجود الانساني ورتبة اعلى من المرتبة البشريَّة وتكون سعادتها مناسبة لاحوالها . ومثل النفس في ذلك مثل الفرُّوج الذي يكون اولاً في البيضة فاذا استكملت صورته ألقى منهُ قشوره وتصوَّر بصورة أُخرى اشرف من الصورة الاولى الّا ان النفس يحصل لها بمفارقة البدن صورة تلذّ منها بحسب ما اقتنتهُ وكسبتهُ وتحصل جميع هذه الاشياء على هيئة تصورها اما سعيدة واما شقية وقد كنّا بيَّنا ان للنفس العاقلة فعلاً يخصها في ذاتها وانهُ هو الذي يكملها ويسوقها الى سعادتها وذكرنا ما هو وكيف هو فمتى عاقها عن سعادتها وفي عرقوبها اياها حطَّها عن مرتبتها وبحسب ذلك الحط يكون شقاوتها »

فلا يبقى للانسان الّا ان يتزَّه نفسهُ عن الحواسّ ويصرفها الى ما يزيدها صلاحاً وجودةً فيحظى يوماً بذلك النعيم الذي لم تنظرهُ عين انسان ولم يخطر على قلب بشر

# نصرانيَّة غسَّان

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

لسنا ممَّن يخاصم في الدفاع عن الحقيقة . فانَّ للحقّ نوراً ساطعاً ربَّما حجبتهُ سُحُب الاهواء البشريَّة زمناً الى ان يكشف بقوَّة اشعَّته تلك الغيوم فيبدّدها ويعود الى رونقه وبهائه

على انَّهُ في بعض الامور لا يمكن الانسان ان يصيب الحق بتمامه وانَّما يستدلّ عليهِ بدلائل تختلف قوَّة وعدداً فيبرز في ذلك حكمهُ مرجحاً لرأيه على رأي غيره ربَّما يأتي بعدهُ آخر فيزيد القضيَّة وضوحاً بما اكتشفهُ من الآثار . وهذا الامر في التواريخ اصدق ممنهُ في غيره